(١١)

القيامة
وإنها لقائمة
في قيامك بالحق: القيامة في السلامة
وفي قيامك بنفسك: القيامة في الندامة

حديث الجمعة

٢ ربيع الآخر ١٣٨٢ هـ - ٣١ أغسطس ١٩٦٢ م

السلام على من اتبع الهدى، وخشي عواقب الردى. السلام على من سمع فاهتدى، وعمل فاقتدى. السلام على من استمع القول فاتبع أحسنه. السلام على من طلب وجه الله، وذكر الله بالغداة والعشي، بالبكور والآصال، ولم يكن من الغافلين عن ذكره، مع أنفاسه قاصدا وجهه، راجيا رحمته، طامعا في جمال طلعته. السلام على من عبد الله عبدا لله خالصا في طلبه واستقامته، يريد وجهه ربا معبودا بوجهه عبدا عابدا.

دخل أعرابي على رسول الله يوما، فقال له: إني لأرجف من ذكر القيامة، ذكرها يزلزل داخلي، وتنوء به نفسي. فقال له الرسول: وماذا أعددت لها يا أخا العرب؟ وإنها لقائمة. قال: (ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام، ولكني أعددت لها محبة الله ورسوله. فقال: أنت مع من أحببت.)[١]

(إنها لقائمة). وماذا أعددت لها؟ وماذا أعددت لهذا الأمر القائم؟ ماذا أعددت لأمر تنتظره ولا ينتظرك، ولا ينتظرك وتنتظره، لأمر هو أمر الله، لقيام هو قيام الله، لشأن هو شأن الله؟ يأتي لك يوم تتفتح عليه عيناك، يوم تدركه، يوم تبصره، يوم تعمل لتراه فتراه، وترى أنه رائيك، وأنه رآك، وأنك ستبقى مرئيا منه. متى غاب الله عن قيامه حتى ينتظر له قيام؟ ومتى احتجب الله في قيامه حتى يكون له ظهور، وهو المعروف، وهو الموجود، أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟ إن الذي يهلك بنفسه ويقوم بربه إنما هو الإنسان. إن الذي يحجب ويكشف عنه له عن معية ربه إنما هو الإنسان.

وأمره في هذا بيده ما طلبه في أوانه. وبعيد عن النوال ما فقده في إبانه. (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا)[٢]. (موتوا قبل أن تموتوا)[٣]. (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)[٤].

الإنسان في الهو، والناس في إنسانه، في جلابيب من النور أو في جلابيب من النار، أو في جلابيب من الظلام والتراب. إن الناس وهم في جلابيبهم من الأرض، بين يدي رحمته من الإنسان في جلابيبه من النور، أو في جلابيبه من النار، تسوقهم جلابيبهم من النار، وتشهدهم جلابيبهم من النور، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا، يوم تأتي كل نفس معها سائق وشهيد، سائق من نفسها في جلبابه من النار، وشهيد من معناها في جلبابه من النور، ومسئول من قيامها وذاتها وجوارحها، في ذات نشأت من التراب، في ذات من الظلام، أنسى الحفظة ذنوبها يوم ارتضاها، وكشف لها عن فجورها يوم قلاها. أنتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. إن هذا الذي تلوكه ألسنتنا من القول، نقلا عن منقول الحديث، أو ترديدا لكريم حديث، أو استماعا لصادق حديث ليس أمرا في خيال ولكنه أمر في واقع وقيام عند مدرك للحق، طالب للسلام، وهو عنه غافل، أمر ينتظره فإن استيقظ عمل له، وإن عمل له كشف له، وإن كشف له قام أمره، وكشف عنه غطاؤه، فاحتد بصره وبصيرته، فرأى بعين بصيرته، رأى ما رأى أهل البصائر، انعكس بصره في بصيرته فرأى. رأى أمر ربه، ورأى خلق نفسه، ورأى خلق السموات والأرض، رآه من يطلب ومن يهوى وما يهوى، رآه عبده، رآه فناءً فيه، فقامه بقاءً به، عبدا ويدا ووجها، دخل في حصن لا إله إلا الله، دخل في شهادة أنه لا إله إلا الله، تواجدت فيه له من الله لمحته، ومن الحياة ساعته، وقامت به بالحق قيامته، مات عن نفسه، فأحياه ربه بمعيته منه حياة طيبة له، فتألف سائقه، وصاحبه وخالله، فما ساقه، وتألف شاهده فامتزجه، ما حاسبه وما راقبه، ولكنهما تحابا وتخاللا. لم يرد إليه عمله مقبولا ورد إليه عمل ربه به له مبذولا، فقد قبله لنفسه وقد قام فيه، شغلته مرضاته عن مجاهدته، غنيا عن العالمين في علم عنه راضيا عنه لغير علة في عقيدته به. عرفه لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية، ورآه بالطاعة والمعصية يصلح شأن عبده الذي قام في طاعته، فعرف المطاع ليس غيره، وجانب أمر معصيته، فرأى المجانب عن المغاضبة ليس غير ضميره ووعيه. {من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها}[٥]. من اهتدى إلى ربه إنما يهتدي إلى نفسه، يوم هو زكاها ما دساها، يوم هو هيأ لها سبيل الزكاة والحياة، فأحياها بعقله، وقوله، وعمله، ومسعاه، فاهتدى إليها معية من الله، مرادة منه، ووجهه إليه، ووحدانيته عنده. ومن ضل فإنما يضل عليها. {إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا}[٦]. ضل عليها يوم كفر بها لخالقها، ولم يردها لمن ائتمنه عليها. وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. تأتي إليه كل نفس معها سائق وشهيد، سائق في جلباب النار من أمر الله، وشهيد في جلباب النور من أمر الله.. هذا أو ذاك إنما هما يدا رحمته، ويدا حكمته، لمن كانت في جلباب التراب

نشأته وهو في عماء عن أمره، ينتظره بحسن طويته من الخير الكثير، ومن العلم الكثير، ومن العطاء الكثير، ومن الحق الكثير، ومن الحب الكثير. هو في عمائه أبصر من بصائر الملك والجن، ما خلقه الله إلا لنفسه. ما خلقت الإنس، وما خلقت الجن، ما خلقت الجن وما خلقت الإنس إلا ليعبدون، إلا ليكونوا عبادا لأنانيتي فقد خلق الله النفوس من النار، وخلق الله العقول من النور، وخلق الله الذوات من التراب، وأوجد الإنسان بمعناه لمعناه كلها فيه أبعاضه وصفاته.

تواجد النور والنار في أسوار الذات، وقيود الحس، وعجز الصفات، وما أوجدهم الله ليكونوا فيما يشعرون به في سجن الضيق، والعجز عن القدرة، وأسر الذات. ولكن الله أوجدهم ليكونوا أحرارا، ولتكون السموات والأرض لهم دارا، وليكون الله معهم بأنانيته في معاني الأنانية لهم، في قرب قاب قوسين أو أدنى، أقرب إليهم من حبل الوريد، بمعيته لا تفارق، وفي مخالطة محيية لا تنفض، وفي حب متصل لا ينقطع، وفي عطاء متواصل لا يجذ. هذا هو الإنسان في عمائه. هذا هو الإنسان في بلائه. هذا هو الإنسان في عالم ابتلائه ليبلوكم أيكم أحسن عملا. فإذا أحسنتم العمل استوظفكم في وجوده أيدي له، وأقدام له، ووجوه له، وعيون له، وآذان له، وأفواه له، وألسنة حكمة له، وكتبا له، وكلمات طيبة له. كل هذه أوصاف العبد فيه، إذ يجعل منكم عبادا له، يذكر عند ذكركم، ويعرف في عرفانكم، ويلاقى في معرفتكم ليبلوكم فيما آتاكم، فإذا ما ابتلاكم فأحسنتم أشهدكم خلق أنفسكم في جديد لكم منكم، وأشهدكم خلق السموات والأرض دارا لكم، بها يتسع خلق السموات والأرض، فإذا ما وعيتم ودريتم جعل منكم عضدا له ويدا له يفعل بها للآخرين ما فعل لكم بسابقين لمعانيكم. {والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون}[٧] {وما كنت متخذ المضلين عضدا}[٨] ...

يوم يسيركم جبالا ويقطعكم أرضا، يبعضكم أحياء، إذ أحييتم كلًّا وأحييتم أبعاضا، يقطع أرض ذواتكم قطعا حية، فكانت يدكم يد الله، وقدمكم قدم الله، ووجهكم وجه الله. {ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا}[٩]. إنكم قيام السموات والأرض في تماسكها ووحدتها وفي أوزارها ودخانيتها، يدعوكم إليه فتستجيبون لندائه وتلبون طلبه، فأنتم للعوالم ذاتها ودخانيتها، بعقولكم وقلوبكم وذواتكم ومعانيكم. إن بيان الكتاب لكم هو ما تبينه الروح اليوم لكم، وما أبانته مع من قبلنا من سالف من الصالحين بها ممن أبان لكم، على إحساس به، ومساس له، نورا يقوم في النفوس فتزكو، ويقوم في العقول فتتحرر، ويقوم في القلوب فتحيا، ويقوم في الذوات فتتوحد، ويقوم في الجوارح فتتبعض، ويقوم في الباطن فينطلق، ويقوم في الظاهر فيتخلق. إن هذا الذي نقول لكم والذي هو ليس جديدا عليكم فقد جاء به الرسول، وأبانه مجددا للفطرة من قبله تجددت به الفطرة فيمن بعده، فردده وبينه من عمل به، فقامه وأقامه، واستقام مع ربه، فبه في

الناس نشره وأظهره، فقوم به وجدده، وأوجد به فعدده، وتكاثره فامتده، فرأى في نفسه ما وعده، ورأى في قومه ما شهده، فاستقام على ما عرف استقامة من استقام على ما عرّف، فكان بما عرف عين من عرَّف، فصلى لربه ونحر، وأمات نفسه، والله بقيامه ذكر. هذا هو الخير في أمة رسول الخير، وهذه هي الرحمة في أمة رسول الرحمة، وهذا هو الحق في أمة رسول الحق.

ماذا عرف الناس؟ وماذا طلب الناس؟ وماذا وعي الناس، حتى يجددوا قديما بخير، وما جددوا بما وعوا من قديم إلا كل شر، وحتى يزرعوا في جديد، ما عرفوا مما جدَّ من الخير فيهم، ولكنهم لا يزرعون في الجديد، إلا ما جددوا من الشر بهم؟ يسوفون الله، ويسوفون الساعة، ويسوفون القيامة، ويسوفون الجزاء، ويسوفون الرحمة، ويسوفون الوهب، ويسوفون الميزان والعطاء، ويسوفون يوم الدين، وكل شأن من ذلك حاضر قائم بقيام الله، في قيام الله، ما ذكر الله، وما عرف الله، وما كشفت نفس أمرها من الله، ولم تفرط فيه أمرا قائما من قائم أمر الله.

إننا نشهد في هذا العصر وفي هذه الأيام جديدا من الأمر ومزيدا من الكشف في سفور الرقيب، وسفور الشهيد، وسفور السائق، يرسل الشياطين على الكافرين فتؤزهم أزا، ويفجر الأرض عيونا، ويفتح أبواب السماء بماء منهمر، ويفتح معارج السماء، فينظرون ويعرجون، ولا يدركون، سُكِّرت أبصارهم بأوهامهم فهم مسحورون بفعل أنفسهم. كل ذلك اليوم في نشاط الروح ورسالته.

عباد الله، ارحموا أنفسكم، واتقوا الله، وقدروه حق قدره، واعلموا أنكم بين المعدوم والموهوم من قيامكم والدائم الخالد من مآل نشأتكم، إنه في قيامكم هذا من نشأتكم هذه يخرجكم من الأرض، ويهيئكم لروحه، ولنوره، روحا تنفخ في روح قيامكم بذواتكم فتتخللها، ونورا يضاف إلى نور حياتكم لقائمكم به منها تنطلقون ولها تشهدون، مضاعفة الحياة لكم، فإن زلت بكم القدم فضعف الممات ينتظركم، تموتون ثم تموتون، ثم تموتون في هاوية من الموت، يتلاحق عليكم الموت، حتى تكونوا في عذاب الهوان، في عذاب الهون، في عذاب كينونتكم بالقطيعة، ومعانيكم بالحرمان، وحياتكم بالنقصان، لا نار إلا هذا ودون ذلك عذاب الحريق، ولا جنة إلا ذاك، ودون ذلك السموات والأرض بما فيها دارا لكم. قدروا الله حق قدره، واعلموا أنكم خلقتم منه لنفسه، ويوم يفوتكم هذا لا يعود إليكم، وإن فاتكم فبالهوان في رحالكم تردون.. وإن لم يفتكم فيوم تكسبون هذا فبالعزة تردون، ودون ذلك الجنة والنار تملكونها وتملكون ناصيتها ومن فيها - إنها فرصتكم - واعلموا أنكم في هذا الطور من الحياة، وفي هذا النظام من الحياة، تحددون مستقبلكم، باختياركم، وبرضائكم، وبعملكم، وباصطفائكم للطريق لأطوار من الحياة وعوالم من الحيوات، إما في طريق الرحمة ترحمون وتُرحمون، وإما في طريق الكبرياء والعزة تستكبرون وتعتزون، والمستكبرين والمعتزين تلاقون، فإن سلكتم طريق الكبرياء فإلى هلاك محقق، وإن سلكتم

طريق الرحمة فإلى خير محقق وحياة محققة. إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا، هو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

نسأله أن يهدينا سواء السبيل، وأن يجمعنا على الحق والدليل، فيفتح لنا كنوز أنفسنا، وكنوز قلوبنا، وكنوز ذواتنا، فتسعد بالله معانينا، ونسعد بالله معنا وبالله فينا، ونسجد نحن في الله، لا يحيط به محيط، ولا يدركه مدرك إلا بقدر ما علَّم، وبقدر ما أقام من العلم فيه عنه، نسأله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، نسأله أن يولي أمورنا خيارنا وألا يولي أمورنا شرارنا، وأن يهدينا برحمته وبحكمته وبقدرته، وبعزته وبنعمته سواء السبيل حكاما ومحكومين، أئمة ومتابعين، يقظين وغافلين، وأن يأخذ بنواصينا إلى الخير أجمعين، وأن يجعل خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائه.

أضواء على الطريق

(إنكم تطورتم في جسمكم المادي خلال ملايين السنين. تغيرتم ببطء وبالتدريج من حالات أسفل إلى حالات أعلى صاعدين من الطين صوب السموات، وفي بطء تخلف الوحش وراءكم وبدأ الروح الأعظم في الظهور.

كم من ملايين السنين مرت عليكم لتصلوا إلى ما أنتم فيه اليوم من أجسامكم المادية، ولم يستكمل بعد هذا التطور. فكم من ملايين السنين ينتظركم قضاؤها في تطوير نفوسكم. فليس هو بالبعيد ذلك الزمن الذي كنتم فيه قردة بالروح التي تعمل في هذه الأجساد. إن صور الحياة جميعا من الروح الأعظم أينما كانت لكم حياة وكيفما كانت فلكم نفس الروح الأعظم بدرجة ما من الأسفل إلى الأعلى. فهو الحياة وجماع الحياة. وهناك روح جماعية لكل الأجناس أنتم جزء منها.

هذا هو السبب في أن أحط شكل للحياة في أحط جزء من العالم المادي، يتصل بالروح الأعظم، وبأعلى قديس وطأ الأرض منذ الأزل، فالأعظم فيهم جميعا. إن أخطر مجرم وأجمل نفس في عالمكم إخوان لأن الآتي من الأعظم في كل منهما. لا يمكنكم الهروب من القانون. وهذا هو السبب في أنكم جميعا مسئولون عن بعضكم البعض).

(برش)

مصادر التوثيق والتحقيق

١ إشارة إلى حديث شريف: "أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَتَى السَّاعَةُ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ما أَعْدَدْتَ لَهَا قالَ: ما أَعْدَدْتُ لَهَا مِن كَثِيرِ صَلَاةٍ ولَا صَوْمٍ ولَا صَدَقَةٍ، ولَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَهُ، قالَ: أَنْتَ مع مَن أَحْبَبْتَ." الراوي: أنس بن مالك. صحيح البخاري.

٢ مقولة من حديث للخليفة عمر بن الخطاب. أخرجه أحمد في (الزهد)

٣ حديث شريف. المحدث: الزرقاني، ولكن لم يثبت سنده، ويوافق الحديث الشريف: "كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ وعُدَّ نفسَك في الموتَى". أخرجه البخاري.

٤ "النَّاسُ نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا". قول للإمام عليّ كرم الله وجهه. المحدث: السيوطي. المصدر: الدرر المنتثرة.

٥ سورة الإسراء - ١٥

٦ سورة الإنسان - ٣

٧ سورة الذاريات - ٤٧

٨ سورة الكهف - ٥١

٩ سورة الرعد - ٣١